التنشئة الإجتماعية في الـمجتمع التقليدي الـجزائري

لولي حسيبة *

تعد التنشئة الإجتماعية من أكثر العمليات التربوية تأثيرا في حياة الفرد، ذلك لأنها عملية يتم من خلالها تشكيل شخصية الفرد بهدف إعداده للإندماج في أنساق البناء الإجتماعي و كذا التوافق مع الـمعايير الإجتماعية و القيم السائدة، فيعرفها غي روشي بأنها

«**السيرورة التي يكتسب الشخص الإنساني عن طريقها و يستبطن طوال حياته العناصر الإجتماعية الثقافية السائدة في محيطه ويدخلها في بناء شخصيته**». (1)

و من خلالها يكتسب الفرد هويته الثقافية عبر مختلف التجارب التي يعيشها في وسطه الإجتماعي و التي تسمح له بإتخاذ مواقف معبرة عن تمسكه بالقيم و الـمعايير الإجتماعية بهدف جعله عضوا إجتماعيا، خاصة و أنها تستمد مبادئها من النظام الإجتماعي للمجتمع.

و السؤال الذي يطرح **ما هي الـمبادئ التي تبنى على أساسها عملية التنشئة الإجتماعية داخل الـمجتمع التقليدي الـجزائري؟** جملة من الـمبادئ تركز عليها هذه التنشئة و هي :

النظام الأبوي :

ما يـميز هذا النظام في الـمجتمع الـجزائري إلى جانب الـمجتمعات العربية، هو الإسم : إذ لتحديد هوية الفرد يتطلب منه تقديم اسم عائلته التي ينتسب إليها و بالتالي اسم أبيه الذي بقي متوارثا أبا عن جد.

هذا إذن ما يفسر أهمية وجود العنصر الذكري بداخل العائلة العربية التقليدية، فالأب في العائلة الـجزائرية التقليدية، هو صاحب السلطة و الإحترام و النفوذ «**لإنتمائه لـجنس الذكر من جهة و كونه رب العائلة الـمسؤولة على رعاية أفرادها من جهة آخرى.**» (2) أما عن تسلطه فإنه يعود إلى وعيه بقيمته الإجتماعية التي اكتسبها خلال تنشئته الإجتماعية في ظل ثقافة الـمجتمع.

فالتصورات التي كانت تعمل العائلة الـجزائرية على غرسها لدى أفرادها، في ظل نظامها الأبوي، تتلخص في هيمنة الذكر على الأنثى و بالتالي إعطاء السلطة الـمطلقة للزوج، حتى يـمارسها «**تـجاه جميع أفراد الأسرة بـمن في ذلك الزوجة، فيتوقع منهم الطاعة و الإحترام و الإمتثال و عدم مناقشة فيما يراه مناسبا.**» (3)

وعليه فإن هذه الإمتيازات و الـحقوق التي منحت للرجل الـجزائري عامة و الأب خاصة في ظل النظام الأبوي، قد قدمت له بإسم التقاليد الـمتوارثه، بإعتباره الـمسؤول على رعاية أفراد أسرته من حيث الإنفاق و توفير جميع احتياجاتهم. أما عن الـمرأ ة و صورتها داخل هذا النظام التقليدي، فهي مثلها مثل الأطفال، عليها أن تظهر للرجل كل الطاعة و الإحترام بـما أنها تـحت رعايته، أبا كان أو زوجا.

* أستاذة علم الإجتماع بمعهد تقصراين

التمييز الجنسي :

يعتبر التمييز الجنسي كذلك من أهم ما ترتكز عليه التنشئة الإجتماعية في وسط المجتمع التقليدي الجزائري، إذ منذ الطفولة يتعرض الأولاد، ذكورا و إناثا لعمليات تربوية متباينة، نلاحظها في الألعاب من حيث الوسائل و الطرق. فيطبع هذه الألعاب لدى الذكور الخشونة و العنف لتدريبه منذ الصغر على القوة و التسلط، و في المقابل تمتاز ألعاب الفتاة بالليونة و الهدوء حتى تدرب بدورها على الخضوع و الإستسلام.

وبروز هذا التمييز الجنسي مرتبط كذلك بميلاد الطفل، لأن استقبال المولود يختلف من حيث جنسه. فيستقبل بفرحة عارمة إذا كان ذكرا، و تقام من أجله احتفالات كبيرة. أما إذا كانت فتاة، فإن ميلادها يكون في الغالب سببا للغضب و مدعاة للكثير من الحزن حيث تقول لاكوست دو جاغدان : «**ميلاد طفلة في الجزائر يتم في صمت و الأم تتنبأ بجنس المولود من خلال الفتور الذي يبدو على وجوه الذين يحيطون بها ... فحتى سكان الأوراس المعروفين بالحرية النسبية الممنوحة لنسائهم يقولون للأب الذي ولدت له طفلة، لمواساته، الذي أعطاك طفلة قادر على أن يعطيك ولد و الحمد لله على سلامة الأم**».(4) و الذي يزيد من مأساة العائلة التقليدية هو مجيء المولود أنثى وسط عدد ضئيل من الذكور.

و يؤكد هذا التمييز طبيعة المجتمع الجزائري التقليدي من حيث نظامه الأبوي، أين تكمن أهمية الذكر، بإعتباره المحافظ الوحيد على إسم العائلة و المسؤول الوحيد على تكفل أبويه في الشيخوخة، بما أن الفتاة تعد ضيفا مؤقتا، و علاقتها بأسرتها تبقى قصيرة و لا تقدم لها شيئا، لأنها رغم تعبها في تربيتها و رعايتها إلا أنها لا تنتظر منها مقابلا، لأن مصيرها بيت زوجها.

و بما أن ثقافة المجتمع الجزائري في ظل النظام الأبوي يسيطر عليها الطابع الإقصائي بين الجنسين فهي تؤدي إلى الفصل بينهما من حيث المضمون الإنساني و بالتالي سمو الرجل (الذكر) ودونية المرأة (الأنثى)، وكذا القدرة الإبداعية للرجل و تبعية وخضوع المرأة.

علاقة المرأة بالرجل :

إن الصورة التي أعطيت لهذه العلاقة في ظل النظام الأبوي الذي ساد في المجتمع الجزائري، تعكس كل من السيطرة و الخضوع : فالرجل يحمل مركز السلطة و الإحترام و النفوذ و النسب، و في المقابل تخضع المرأة لمراقبته.

فمثل هذه العلاقة، التي تجمع بين المرأة و الرجل، هي التي جعلت الفتاة مبكرا، «**تتعلم أنها تحت تصرف الرجل و أي محاولة للتغيير أو المطالبة بالمساواة يعتبر خروج عن الأخلاق**».(5) وكذا عن الثقافة التقليدية التي أنشئت عليها.

وهذا النوع من العلاقة –السيطرة و الخضوع– يفسره السلوك الذي تسلكه الفتاة في معاملتها مع الذكور (أب و أخ). فلا ترفع صوتها أثناء الكلام، إذ يجب «**أن يتسم حديثها بالحياء و العفاف فلا يعلو صوتها أو تتلفظ بلفظ بذئ أو خادش للحياء، و أن لا تضحك بصوت مرتفع خشية أن تلفت أنظار الذكور**».(6) وحتى لباسها يشترط فيه أن يكون محتشما.

في حين نجد عند الرجل كل الحق في رفع صوته أثناء التكلم و إعطاء الأوامر الصارمة. فلا وجود لحوار يجمع بينه و بين المرأة، و إن أراد مخاطبة زوجته فإنه يكون بطريقة غير مباشرة، بحيث لا يمكن أن يناديها بإسمها.

تقسيم الـمجال الإجتماعي :

إن طبيعة النظام الإجتماعي التقليدي و نوع العلاقة بين الجنسين هما اللتان كانتا تعمل على ترسيخ فكرة الفصل و التمييز بين الجنسين لدى أفراد الـمجتمع الجزائري، مما أدى إلى خلق مجالين مختلفين : أحدهما خاص بالرجال و الآخر بالنساء.

فكلا الـمجالين جاءا ليعكسا دور كل جنس على حدا، فمجال الرجل يتحدد خارج البيت بحكم مسؤوليته في رعاية أفراد عائلته من حيث توفير إحتياجاتهم الـمادية، بينما فضاء الـمرأة فنجده ينحصر بداخله بحكم ما تؤديه من مهام منزلية و إنجاب و تنشئة الأطفال.

فهو تقسيم نابع من ثقافة الـمجتمع، الذي من خلالها يحدد لكل جنس قواعد سلوك معينة، من أجل إتباعها في مجاله الخاص. فنجد الرجل يقضي معظم وقته في الخارج. وحتى لا ينقص من مكانته الإجتماعية، فإنه لا يقرب الدار إلا من أجل الأكل و النوم. في حين تفرض الثقافة التقليدية على الـمرأة أن لا تغادر مجالها الإجتماعي إلا للضرورة و إن غادرته و دخلت الـمجال الإجتماعي للرجل عليها أن تحمل ستارا يسمح لها رؤية الرجال و الإستماع لحديثهم دون أن يراها أو يعرفها أحد.

تحديد الأدوار الإجتماعية :

يتحدد دور الشخص في أي موقف عن طريق السلوك الـمتوقع منه، و الذي تفرضه عليه مكانته الإجتماعية : فالرجل دور يختلف عن دور الـمرأة.

و في الـمجتمع الجزائري، على غرار الـمجتمعات العربية الآخرى، تختلف عملية التنشئة الإجتماعية من جنس إلى آخر، و هذا حسب الأدوار التي سطرها لهما الـمجتمع و بالتالي حسب السلوك الذي يتوقعه منهما. إذ كانت العائلة الجزائرية التقليدية تساهم، من خلال تنشئتها، بدور كبير في وضع فواصل ثقافية و إجتماعية للتمييز بين الذكور و الإناث و في علاقتهما و كذا في تحديد الأدوار الـمناسبة لكل منهما لذا كثيرا ما نجد «**الفتاة تحاكي أمها في أدوارها بوصفها نموذجا مرجعيا لها. و الإبن يحاكي والده. الفتاة تعد للحياة التقليدية و الزوجية و الإبن للحياة العامة**».(7) فالحدود بين الجنسين هي حدود إجتماعية تعكسها ثقافة الـمجتمع، و لما كانت هذه الثقافة من منتوج النظام الأبوي السائد في الـمجتمع الجزائري التقليدي، أين كانت تكمن أهمية العنصر الذكري داخل العائلة مقارنة مع الأنثى، فإن حرية الذكور في تصرفاته كانت تزداد طردا مع سنهم : فكلما كبر الولد زادت حريته في اللعب مثلا عكس الفتاة فإنها تتمتع بحرية نسبية في مرحلة الطفولة لتتضاءل تدريجيا كلما كبرت، سواء في اللعب أو الخروج من الـمنزل أو غير ذلك.

و نشير أن للعب دور كبير في تحديد الدور الإجتماعي لكلا الجنسين إذ منذ الطفولة و عن طريق اللعب، تمنح للبنت الدمى كوسيلة تدربها و تهيؤها لأداء دورها الـمستقبلي : زوجة و أم.

فهي بذلك تلعب دور الأم التي تعمل على تحضير الغداء للأولاد، مستعملة في ذلك الحجر و الرمل و الحشيش. إنها اللعبة الـمفضلة لدى الفتاة. في حين يوجه الولد بواسطة لعبه إلى ما هو عنيف ليتعلم كيف يظهر قوته و سيطرته. و التي يعمل كل واحد منهما على إتباع ما رسمه لهما

المجتمع في ضوء ثقافته و نظامه، فقد أكد مالك بن نبي قائلا أن :«**الفرد لا يستطيع تحقيق ذاته بإرادته الخاصة و إنما بإرادة المجتمع الذي هو عضو فيه**».(8) هذا يعني أن هذا الأخير هو الذي يفرض على الفرد نموذج التنشئة التي يتلقاها حتى يتسنى له الدور المنوط به.

فعملية تحديد الدور الإجتماعي داخل المجتمع الجزائري التقليدي من المهام الرئيسية للعائلة وفق ما تلقن من تربية لأفرادها تسعى من خلالها إلى زرع التمييز و الفصل بين الجنسين من أجل الحفاظ على نظامها الأبوي.

فهي تعمل على تدريب الجنسين منذ الصغر على أداء دورهما المنوط له مستقبلا. فتحث الفتاة على اللعب بالدمى و الذكر بأشياء تستدعي المجال الخارجي كالكرة مثلا. وبهذا «**يصبح للذكور ثقافة غير ثقافة الأنثى و تختلف تجاربهما الحياتية، إذ أن معتقدات الوالدين و الأهل و مفهوم الثقافة للجنس من حيث هو مذكر و مؤنث، تلعب دورها بالإيحاء، بما هو مناسب أو غير مناسب لكل من الجنسين**».(9)

كانت هذه إذن أهم ما يميز التنشئة الإجتماعية للمجتمع التقليدي الجزائري نظرا لنظامه الأبوي الهادف إلى التمييز بين الجنسين لطبع علاقة السيطرة و الخضوع لصالح الذكر، و ليتحدد وفق هذه العلاقة مجالا معينا يتميز به كل واحد منهما، فكان الخارجي من نصيب الذكر و الداخلي منه للأنثى بحكم دورهما الإجتماعي الذي كان يترجمه طبيعة اللعب لكلاهما.

فإذا كان هذا واقع التنشئة الإجتماعية في المجتمع التقليدي، فما هو حالها في مجتمعنا اليوم؟

المراجع :

1– غي روشيه : مدخل إلى علم الإجتماع العام : الفعل الإجتماعي. تعريب : دنشلي مصطفى، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، الطبعة الأولى 1983 ص 164.

2– بركات حليم : المجتمع العربي المعاصر : بحث إستطلاعي إجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية 1985 ص 179.

3– شكري علياء و آخرون، المرأة و المجتمع : وجهة نظر علم الإجتماع، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1988 ص 260.

4– عرابي عبد القادر : المرأة العربية بين التقليد و التجديد : المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 136 جوان 1999 ص 59.

5– عبده سمير : المرأة العربية بين التخلف و التحرر : منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1980 ص 15–16.

6– ZERDOUMI NEFISSA, Enfant d'hier, l'éducation de l'enfant en milieu traditionnel Algerien, François Masero, Paris 1982 P 163.

7– LACOSTE DUJARDIN (Camille), Des mères contre les femmes, Editions la découverte, Paris 1985 P 57.

8– BENNOUNE MAHFOUD, Les Algeriennes victime de la société néopatriarcale, Marinoor, Alger 1999 P 127.

9– BENNABI MALEK, Le problème des idées dans le monde musulman, El Bay'yinate, Alger 1990 P 29.